دلالات وأسرار حروف الجر الثلاثة "في، "الباء"، "على" نماذج من سورة النساء

د.لبيب محمّد جبران صالح *

(١) أستاذ مساعد بقسم الدراسات الاسلامية – جامعة طيبة – المدينة المنورة – المملكة العربية السعودية

ملخص البحث :

إن الحرف في القرآن الكريم ظاهرة دالة على بديع النظم الحكيم، وله إيحاءات ودلالات تهمس بعظم النص القرآني، ورقي البيان الذي فيه، وتهمس ـ كذلك ـ بتناسق ظاهر بين اللفظ والمعنى، ولو ذهبنا نستنطق الحرف في القرآن لوجدناه الأليق ببلاغة النظم، والأهدى إلى المعنى المقصود، ويستطيع الناظر في أعطاف الحرف وظلاله أن يتسمَّع لخصائص النظم ودقة التراكيب، فكأن للحرف رسالة يؤديها بإتقان تام.

كلمات مفتاحية:

الحرف، القرآن، في، الباء، على، البلاغة.

المقدمة:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى الّه وصحبه.

أما بعد ، فإن دراسة الحرف في كتاب الله توقفنا على أدق أسرار هذا الكتاب العزيز، فإن الحرف هو مادة نسيج القرآن ولحمته.

وقد شكل الحرف في القرآن ظاهرة أسلوبية في النمط القرآني، تستدعي الوقوف والتأمل والنظر، ففيه إضاءات وإشارات، كل منها يحمل مستفادًا قيما في مكنوناته البلاغية.

وللحرف في القرآن روح تسري في عروق السياقات، فتجعل منها حياة بما يشيع من ظلال ودلالات في معانيه، بيد أن هذه الروح خفية تند عن الوصف والضبط والحدود، لكنها بقدر ما هي خفية، فإنها قوية ومؤثرة.

وإن من أغراض هذه الدراسة أن تبعث هذه الروح في ثنايا السياق، حتى تجعل منه جسدًا يتحرك له أثره وإيحاءاته، وذلك من خلال إيحاء معاني الحرف فيه، فإن التسمع لخصائص الحرف والتنصت لمدلولاته، يبعث في النص حياة تسري، ونورًا يمشي، فيضيء كل شيء حوله، حتى ندرك أن للحرف رسالةً ما جاء إلا ليؤديها وقد فعل، فأشاع في السياق معاني تعجز عنها جمل طوال أو كادت.

أولا: موضوع البحث وحدوده:

تعرض هذه الدراسة لمادة الحرف في القرآن وتنتخب نماذج من سورة النساء خاصة، حتى نقف عليها تحليلاً وفهماً، وضبطاً ومنهجاً.

وذلك للوقوف على ملامح المنهج القرآني في طرح مادة الحرف فيه. والكشف عن أسراره البلاغية.

فهي دراسة تُعنى بتوجيه الحرف في القرآن بلاغياً وبيانياً.

ثانيًا: مشكلة البحث:

تحاول هذه الدراسة الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما دلالات الحرف في القرآن؟

- ما أثر القول بالنيابة أو التضمين على فهم النص القرآني؟
- ما منهجية القرآن في طرح مادة الحرف فيه؟
- هل للحرف في القرآن أثر في السياق العام للآيات؟

ثالثاً: أهداف البحث:

يكتسب هذا الموضوع أهميته للجوانب الآتية:

أولًا: الوقوف على ظاهرة الحرف في القرآن الكريم يخط طريق بيان الإعجاز القرآني الفريد، فهو من أوسع الأبواب دلالة على تفرد القرآن في استعمال الحرف كل في موضعه.

ثانيًا: يشكل الحرف في القرآن مادة النسيج القرآني ولحمته، وإن التعرض لخصائصه وهمساته إنما هو تسمع لبلاغات النص القرآني الحكيم.

ثالثًا: ترك القول بالنيابة في الحروف أو التضمين أو الزيادة في الحرف، فإن الأخذ بهذا إنما هو صنعة النحاة، وحرم القائلين به من التعرض لأسرار هذا الحرف في موضعه، فقد صرفوا عنايتهم إلى غير المقصود من النص.

رابعًا: التسمع لخصائص الحرف والتنصت لهمساته يضفي جمالًا على النص القرآني، لا يتذوقه إلا من أعمل قواعد النظر التدبري بغاية الوفاء.

رابعًا: الدراسات السابقة:

كثيرة هي الدراسات التي تعرضت لمادة الحرف في القرآن الكريم، لكني لم أقف على دراسة متخصصة تتناول نماذج الحرف في سورة النساء خاصة.

ولا يزال هذا البحث يتسع للنظر والتأمل، فهو واسع الدلالات، فإن أسرار القرآن كثيرة، لكنها مع كثرتها لا يختلط بعضها ببعض، فكل يأتي بقدر ما يعمل الفكر والنظر. ذلك أن أسرار القرآن كالبحر الزاخر بيد أنه لا ساحل له.

خامساً: المناهج المستخدمة في البحث:

١. **المنهج الاستقرائي الناقص:** حيث سيقوم الباحث باستقراء الآيات التي تناولت الحرف القرآني وذلك من سورة النساء ثم انتقاء ما يتماشى وموضوع البحث.

٢. **المنهج الاستنباطي:** حيث اعتمد الباحث على استنباط الدلالات البيانية للحرف في القرآن الكريم.

٣. **المنهج التحليلي:** وذلك بتحليل دلالات الحرف للكشف عن أسراره وإضاءاته.

سادساً: خطة البحث:

قام الباحث بتقسيم هذه الدراسة إلى مبحثين، بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة والتوصيات والمراجع، وذلك كما يأتي:

المبحث الأول: مقدمات عامة.

المبحث الثاني: حروف الجر ودلالاتها البلاغية:

المطلب الأول: حرف الجر (في) ودلالته البلاغية.

المطلب الثاني: حرف الجر (الباء) ودلالته البلاغية.

المطلب الثالث: حرف الجر (على) ودلالته البلاغية.

ثم خاتمة البحث وأعرض فيها نتائج البحث.

المبحث الأول: مقدمات عامة.

بعدت الشقة بين العلماء حول مسألة تناوب الحروف وتضمينها، وتكاد تشبه هذه المسألة التي نتصدر لبحثها أن تكون من أوسع المسائل اللغوية المتصلة بالقرآن الكريم امتدادًا.

وتكاد تكون من أعقد القضايا اللغوية التي تطرق إليها البحث، ممّا يجعل النظر في هذه المسألة شائكًا متداخلًا متعارضًا، لا يبدو من السهولة التوصل إلى سبيل بيّن فيه.

وأرجو أن أقدم في مسألة الحرف في القرآن الكريم ما يسد ثغراته وأرقى فيه إلى نتيجة بيّنه مرضيه.

فإن مقصودي من عقد هذا المبحث هو بيان منهج القرآن في استعمالات الأحرف كل في موضعه، وما كان الحرف إلا لغاية خاصة سيق لأجلها، لكنها لا تخفى على من أعمل الفكر والنظر، فلم يكن الحرف في القرآن اعتباطًا ولا عبثًا، فإذا ما ذكر حرف في موضع فلا يصح حذفه، وإن حذف فلا يستقيم المعنى بذكره، والغاية الوقوع على سره والتسمع إلى همسه.

وإن للحرف في القرآن حظًا وافرًا من البيان الراقي، وموضعًا واسعًا للتأمل والنظر، فقد اتسم بمعجزة لغوية فذة، تفتقت في استعمالات القرآن له، وفي دلالاته اللغوية والبلاغية الراقية.

فكان للحرف رسالة أداها بإخلاص فذ، لا يعرف التعثر أو الكلل.

مما يحدو بنا أن نقِّر: بأن «لكل حرف من حروف المعاني وجهًا هو أولى به من غيره، فلا يصلح تحويل ذلك عنه إلى غيره، إلا بحجة يجب التسليم لها»[1]. ولا يؤدي حرف مؤدى غيره.

«وما من حرف في القرآن تأولوه زائدًا أو قدّروه محذوفًا أو فسروه بحرف آخر، ليتحدى بسره البياني كل محاولة لتأويله على غير الوجه الذي جاء به في البيان المعجز»[2].

لذلك «قال المحققون من أهل العربية: إن حروف الجر لا تتعاقب، حتى قال ابن درستويه: في جواز تعاقبها إبطال حقيقة اللغة، وإفساد الحكمة فيها، والقول بخلاف ما يوجبه العقل والقياس»[3].

فالقول» ببطلان نيابة بعض حروف الجر عن بعضها وكل حرف يؤدي معنى

---

(١) **جامع البيان**، الطبري، ١/ ٣١١-٣١٢.
(٢) **الإعجاز البياني للقرآن الكريم**، عائشة عبد الرحمن، ص١٣٨.
(٣) **الفروق في اللغة**، أبو هلال العسكري، ص١٦، وانظر: **أسرار التشابه الأسلوبي في القرآن الكريم**، سلتاغ عبود، ص٢١٩.

خاصًا به لا يؤديه غيره»[1]: هو القول الأليق ببلاغة النص القرآني والأوفق للصواب.

فحروف الجر لا تتبادل مواضعها، ولا تتعاور[2] معانيها.

«وإن القول بتناوب الحروف أو تضمنها ليصرف الهمم عن الإلتفات إلى أسرار الحروف في كثير من آيات القرآن المجيد»[3].

بيد أن فروقاً ظاهرة بين معاني الحروف فلا يؤدي حرف معنى حرف غيره.

قال الزمخشري: «فإن قلت: يجري لأجل مسمى، ويجري إلى أجل مسمى، أهو من تعاقب الحرفين؟ قلت: كلا، ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع، ضيق العطن، ولكن المعنيين عنى، الانتهاء والاختصاص، كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض، لأن قولك يجري إلى أجل مسمى، معناه يبلغه وينتهي إليه، وقولك: يجري لأجل مسمى، تريد: يجري لإدراك أجل مسمى، تجعل الجري مختصًا بإدراك أجل مسمى»[4].

فلا يوازى بين حرفين في الدلالة، لأن لكل حرف غاية سيق لأجلها، ورسالة حمل لواءها بإتقان.

وباعتماد الأصيل لمعاني الحروف وأصول العربية نمهد لفهم دقيق للنص القرآني، فاللام للتعليل بمعنى: كل يجري لبلوغ الأجل، أي: يجري لهذه الغاية. وهي للاختصاص أيضاً أي أن الجريان مختص بذلك.

فجري الشمس مختص بآخر السنة وجري القمر مختص بآخر الشهر.

« أما (إلى) فإنها تفيد الانتهاء، وهو انتهاء الغاية. وانتهاء وظيفتها كاملة وأداء دورها تماماً، فأشارت (إلى) إلى انتهاء الغاية التي وجدت لأجلها، وأنبأت على هذا المعنى الدقيق»[5].

وقد عقد ابن جني بابًا في استعمال الحروف بعضها مكان بعض، فقال:» هذا

---

(١) **تناوب حروف الجر في لغة القرآن الكريم**، محمد حسن عواد، ص٨٢.

(٢) قال ابن الأعرابي: التعاور والاعتوار: أن يكون هذا مكان هذا، وهذا مكان هذا، انظر: **تهذيب اللغة**، الأزهري، باب: العين والراء، ج٣/ ١٠٥.

(٣) **من أسرار حروف الجر**، محمد الأمين الخضري، ص٥.

(٤) **الكشاف**، الزمخشري، ٥ / ٢٢.

(٥) **همع الهوامع**، السيوطي، ج٤، ص١٥٤، و**معاني النحو**، فاضل السامرائي، ج٣، ص١٦.

باب يتلقاه الناس مغسولًا ساذجًا من الصنعة، وما أبعد الصواب عنه وأوقفه دونه، وذلك أنهم يقولون: أن (إلى) تكون بمعنى (مع) ويحتجون لذلك بقول الله سبحانه ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ٥٢)، أي مع الله، ويقولون إن (في) تكون بمعنى (على)، ويحتجون بقوله عز اسمه ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ (طه: ٧١)، أي: عليها، ويقولون: تكون (الباء) بمعنى (عن) و(على) ويحتجون بقولهم: رميت بالقوس أي: عنها وعليها، وغير ذلك مما يوردونه، ثم يقول:» ولسنا ندفع أن يكون ذلك كما قالوا، لكنا نقول: إنه يكون بمعناه في موضع دون موضع، على حسب الأحوال الداعية إليه، والمسوغة له، فأما في كل موضع وعلى كل حال فلا، ألا ترى أنك إذا أخذت بظاهر هذا القول غفلاً هكذا لا مقيداً، لزمك عليه أن تقول: (سرت إلى زيد)، وأنت تريد معه، وأن تقول: (زيد في الفرس)، وأنت تريد عليه و(زيد في عمرو)، وأنت تريد: عليه في العداوة، وأنت تقول: (رويت الحديث بزيد)، وأنت تريد: عنه، ونحو ذلك مما يطول ويتفاحش»[1].

«فالحق أن الأصل في حروف الجر ألا ينوب بعضها عن بعض، بل الأصل أن لكل حرف معناه واستعماله، ولكن قد يقترب معنيان أو أكثر من معاني الحروف، فتتعاور الحروف على هذا المعنى»[2].

لذلك ستتخذ هذه الدراسة منهجًا متبعًا متسقاً وهو عدم القول بالتضمين ولا المجاز بالحرف ولا النيابة فيه. فإن القول بهما يعطل غاية أرادها القرآن من هذا الحرف دون سواه، ويمنعنا من التدبر الأمثل للكتاب العزيز، وما جاءت حروف الكتاب بهذا النمط الأسلوبي إلا لغاية أرادها الله وحكمة تطلبها النص القرآني في مظانه، لا يقف عليها إلا من استعمل حسن النظر والتأمل في أعطاف السياقات القرآنية ودلالاتها للوقوف على سر الحرف والتكشف عنه.

فمن قال بتناوب الحروف عطل الوجه البلاغي للنص القرآني، وترك النص

---

(١) **الخصائص**، ابن جني، ج٢/ ٣٠٦.
(٢) **معاني النحو**، فاضل السامرائي، ج٣، ص٧.

جامداً لا روح فيه، فيقول في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ (الشورى: ٢٥)، أي: يقبل التوبة من عباده[١]. وهذا لا يفسر لنا اختصاص هذا الموضع بحرف المجاوزة الذي يوحي بمعنى الإغراء في إبعاد السيئات والتجاوز عنها ومحوها.

وقد سيقت الآية في مقام الحث على التوبة، والإقبال على الله، وحمل هذه النفوس التي اقترفت السيئات إلى عالم الصفاء والنقاء لتنطلق إلى حياة جديدة من الخير والعطاء.

لذلك كان استعمال القرآن للحرف العربي استعمالًا أمثل لا كفء له في كلام البشر، فاستعمل الحرف بنهج فني رائع، دفع اللغة إلى السمو والارتقاء، وجعلها أكثر دقة وتميزًا وغناءً.

ويقولون في قوله تعالى: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾(المطففين: ٢٨)، أن (الباء) مكان (من)، أي يشرب منها[٢].

ولا أرى في هذا التوجه حجة ولا صوابًا، وهو توجيه ليس مرضيًا ألبته، ولا تظهر عليه جوانب التحليل البلاغي للنص القرآني، وإنما هو وقوف عند ظاهر النص وليس فيه استبطان لسر النظم.

«فالباء في قوله تعالى: ﴿يَشۡرَبُ بِهَا﴾ (المطففين: ٢٨)، تفيد الإلصاق، ومعناه: أنهم يكونون بها، بخلاف قولك (يشربون منها) فإنه ليس فيه نص على معنى القرب من العين، فقوله (يشرب بها) يدل على أنهم نازلون بالعين يشربون منها، فهو يدل على القرب والشرب، فالتمتع حاصل بلذّتي النظر والشراب»[٣].

«ففي الباء هنا دلالة تهمس بأن العين هي مستراحهم، فالكأس بأيديهم وهم على

---

(١) **جامع البيان**، الطبري، ج١/ ٤٤٦، **ومعترك الأقران**، السيوطي، ج٣/ ٤١٣.

(٢) **نظرية الحروف العاملة ومبناها وطبيعة استعمالها القرآني**، هادي الهلالي، ص ١٨٣، باب: تعاقب الحروف بعضها عن بعض.

(٣) **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، السمين الحلبي، ج١٠/ ٦٠٠، **وعلى طريق التفسير البياني**، السامرائي، ج١/ ١٦٥.

حافة العين يشربون، كلما فرغت الكأس ملؤوها منها، ولذة الشرب ممزوجة بلذّة العين، فجاءت (الباء) دالة على التصاقهم بالعين وقربهم منها»[1].

والذي أجرى الحرف مجراه الأصيل ولم يبحث في الدرس البلاغي في سياق هذا الحرف لم يقف على أسرار الحرف. فقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ (طه: ٧١)، قال: للظرفية تحقيقها مثل: زيد في الدار[2].

فأجرى (في) على الظرفية دون تمعن في بلاغات هذا الحرف للوصول إلى أسرار السياقات.

«فإن للظرفية في النظم الكريم ظلالا وإيحاءات يعجز حرف الاستعلاء عن الوفاء بها، ففرعون يعبر بقوله هذا عن غيظ بلغ مداه، وهو يرى عرشه يهتز، فأطلق هذه الكلمات منذرًا بأقصى العقوبة، فجاء حرف الوعاء دالًا على أنهم سيشدون إلى الجذع شدًا بالغ القوة والقسوة، حتى ليكاد المصلوب يواريه الجذع ويشتمله»[3].

---

(١) **من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم**، الخضري، ص١٩٧.
(٢) **الاستدلال في معاني الحروف دراسة في اللغة والأصول**، أحمد كرّوم، ص٧٥.
(٣) **من أسرار حروف الجر**، الخضري، ص١٢٧.

فقوله:﴿ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ ﴾(طه: ٧١) بمعناها، لتمكن المصلوب من الجذع تمكن المظروف في الظرف[١].

وهذا تحليل بيّن المنهج، فاصل في الرأي وهو يوحي بجلال الحرف في كتاب الله فقد سلك الحرف مسلكًا سهلًا، وأعرب عن المراد بغاية الوفاء.

أما القائلون بزيادة هذه الحروف فقد قتلوا هذا الحس البلاغي في النص القرآني وجردوه من روحه التي جَعلت من كلمات القرآن حياة وروحًا ونورًا.

وما دفع النحاة إلى ذلك إلا قواعد الصنعة، ولا ينبغي أن ننزل ذلك على آيات الكتاب فإن جلال النص القرآني وإعجازه ونظمه ليأبيان القول بزيادة شيء فيه، وإن بدا لنظرة أن الحرف زائد، فإذا وقعنا على سره تبدد القول بزيادته.

فيقولون في قوله تعالى: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ (الأحقاف: ١٥)، إن (في) هنا زائدة[٢] وهذا كلام ظاهر البطلان، فإقحام حرف الظرفية هنا له دلالة يلحظها كل من أعمل قواعد النظر التدبري ليصل إلى جواب لا يُقطع وقولٍ فصلٍ ظاهرٍ في الوقوف على منهجية منتظمة في طرح القرآن لحروفه ومفرداته، وهو ما يجلّي التناظر في جماليات النص القرآني.

فالقول بأصالة الحرف على دلالة الظرفية هو الأوفق لسياق النظم الكريم فكأنه قال: أن يجعل الله ذريته موقعاً للصلاح ومظنة له كأنه قال: هب لي الصلاح في ذريتي وأوقعه فيهم[٣].

فإجراء (في) على أصالتها –وهو الظرفية والوعاء– يضفي على النص القرآني جمالًا وبهاءً، فهو إنما أراد بدعائه أن يكون الصلاح وعاءً لذريته، يحيطهم من كل مكان، ولا يفارقهم ألبتة، وأراده صلاحاً ينفذ إلى أعماق قلوبهم، فهو صلاح يغوص

---

(١) **شرح الرضي على الكافية**، ج٤ / ٢٧٩.

(٢) انظر: **زيادة الحروف بين التأييد والمنع وأسرارها البلاغية في القرآن**، هيفاء فدا، ص٧١٠– ٧١١.

(٣) **الكشاف**، الزمخشري، ج٥ / ٤٩٩، وانظر: **زيادة الحروف بين التأييد والمنع**، هيفاء فدا، ص٧١٠– ٧١١.

في أعماق النفس فيصلحها ويهذبها ويزكيها فأراد الصلاح الظاهر والباطن وهو أكمل الصلاح.

كل هذا أفاده حرف الظرفية (في)، وبالقول بزيادته فكأنما مررنا على النص القرآني دون استجلاء لذوقه الرفيع، ودون التكشف عن سر اختيار هذا الحرف دون سواه، فالقول بالزيادة إنما هو حُجُب تمنعنا من التأمل والنظر لتذوق جماليات النص القرآني.

المبحث الثاني: حروف الجر ودلالاتها البلاغية:

تمهيد:

لقد اهتدى الحرف في القرآن إلى المعنى المنشود بأخصر طريق، وأيسر السبل، فكان هيّناً غير متعذِّر، «ذلك أنه اختيار رب العالمين الذي أحاط بكل شيء علما، وأحاط بالكلام كله علما، فاذا ترتب حرف فيه، علم الله بإحاطته أي حرف يصلح أن يكون فيه، فجاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة»[1].

وتتخير هذه الدراسة نماذج من سورة النساء؛ انتخبتها لتكون دالة على معالم النهج القرآني وسماوته في انتقاء الحرف الملائم للموضع اللائق به.

وفي نصب هذه الأمثلة إنما نتسمع لخصائص الحروف، ونتتبع إيحاءات نسق التراكيب وما تشي به من أغراض، فقد بلغ القرآن في ذلك الخالص واللُّباب.

المطلب الأول: حرف الجر (في) ودلالته البلاغية:

لا مناص من إجراء (في) على أصالتها وهي الظرفية، وأي عدول عن ذلك إنما هو عدول عن فهم حقيقة النص القرآني، ووقوف عند ظاهر النص، دونما سبر لأسراره واستجلاء لمعانيه.

فإن «(في) للظرفية، إما تحقيقاً، نحو: زيد في الدار. أو تقديراً، نحو: نظر في الكتاب، وتفكر في العلم، وأنا في حاجتك، لكون الكتاب، والعلم والحاجة، شاغلة للنظر والفكر

---

(١) انظر: **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ابن عطية، ج ١/ ٣٨-٣٩، **ومعترك الأقران في إعجاز القرآن**، السيوطي، ج ١/ ٢٣، **المتشابه اللفظي في القرآن الكريم**، لبيب جبران، ص٨٣.

والمتكلم، مشتملة عليها اشتمال الظرف على المظروف، فكأنما محيطة بها من جوانبها، وكذا قوله عليه الصلاة والسلام: « في النفس المؤمنة مائة من الإبل»، أي: في قتلها، فالسبب الذي هو القتل متضمن للدية تضمن الظرف للمظروف، ... وقوله تعالى: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ (طه: ٧١). أنها بمعناها، لتمكن المصلوب من الجذع تمكن المظروف في الظرف[1].

وظاهر قول الرضي أنه يُرجع (في) إلى أصالتها في تمكين معنى الظرفية سواء على الحقيقة أو المجاز.

وهذه نصوص من آي التنزيل تظهر جلال القرآن في استعمال حرف الجر (في)، حيث صار علماً للحق لا يشتبه في إجرائه مجرى الظرفية في أصالتها وحقيقتها.

المثال الأول:

النص القرآني: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ (النساء: ٥).

موطن الشاهد: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ قال (فيها) ولم يقل (منها) كما قال في الآية بعدها: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ (النساء: ٨).

فقال في الموطن الأول ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾، فاستعمل حرف الجر (في) وفي الآية الأخرى قال: ﴿ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾. فاستعمل حرف الجر (من) فما سرُّ هذا التبدل في انتقاء حروف الجر ويكاد يكون السياق واحداً؟ وهل يصلح لأحدهما أن يكون محل الآخر؟

إن غاية هذه الدراسة أن تسدّ أبواب الاحتمالات الباطلة التي تزعم تناقضاً في الآيات، بيد أن تلبثاً يسيراً، وتعمقاً قليلاً، ليكاد يوقفنا على السر من هذا الاختيار، فأسرار القرآن لا تنحصر، ولا يختلط بعضها ببعض، وهذا ما نحاول أن نتكشف عنه.

---

(١) **شرح الرضي على الكافية**، ج٤ / ٢٧٩.

- **آراء المفسرين:**

اختلف المفسرون في بيان سر هذا الحرف في هذا الموضع، فمنهم من جعل (في) بمعنى (من)، أي: من بعضها[١]، وقيل: (في) بمعنى اللام[٢]، كما في خبر: «**أن امرأة دخلت النار في هرّة**»[٣]. أي: لها[٤].

والأوْلى إجراء (في) على أصالتها في تمكن معنى الظرفية حقيقة أو مجازاً.

«فقد عدل النص القرآني عن تعدية ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ﴾، ب(من) إلى تعديتها ب(في) الدالة على الظرفية المجازية، على طريقة الاستعمال في أمثاله، حين لا يقصد التبعيض الموهم للإنقاص من ذات الشيء، بل يراد أن في جملة الشيء ما يحصل به الفعل، تارة من عينه، وتارة من ثمنه، وتارة من نتاجه، وأن ذلك يحصل مكرراً مستمراً[٥].

فكأن باستعمال (في) يلمح إلى «جعل أموالهم مكانا لرزقهم بأن يتجروا فيها ويتربحوا، حتى تكون نفقتهم من الأرباح لا من صلب المال، فلا يأكلها الإنفاق[٦].

فجعل الأموال أنفسها ظروفا للرزق، فيلزم أن يكون الإنفاق من الربح لا من المال الذي هو الظرف، فلو قال (منها) لكان الإنفاق من نفس المال[٧].

فاستعمال (فيها) دل على التنمية المالية، فالمال محفوظ كما الظرف ذلك.

---

(١) **اللباب في علوم الكتاب**، ابن عادل، ج٦/ ١٨٤، وانظر: **الدر المصون**، السمين الحلبي، ج٣/ ٥٨٣، و**البحر المحيط**، أبو حيان، ج٣/ ١٧٨.

(٢) **حاشية الشهاب على البيضاوي**، الشهاب الخفاجي، ج٣/ ٢١٨.

(٣) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر، أخرجه البخاري، باب: فضل سقي الماء، حديث رقم (٢٣٦٥)، ومسلم، باب: تحريم قتل الهرة، حديث رقم (٢٢٤٢).

(٤) **روح المعاني**، الألوسي، ج٢/ ٤٢٦.

(٥) **التحرير والتنوير**، ابن عاشور، ج٤/ ٢٣٦.

(٦) **الكشاف**، الزمخشري، ج٢/ ١٩. وانظر: **إرشاد العقل السليم**، أبو السعود، ج١/ ٦٤٨، **وغرائب القرآن ورغائب الفرقان**، النيسابوري، ج٢/ ٣٥٢. **ومدارك التنزيل**، النسفي، ج١/ ٣٣١، و**نواهد الأبكار**، السيوطي، ص١٢٩. وانظر، **محاسن التأويل**، القاسمي، ج٥/ ١١٢٥، **وتفسير المراغي**، أحمد مصطفى، ج٤/ ١٨٧، **وتفسير المنار**، رشيد رضا ج٤/ ٣٨٤، **والمقتطف من عيون التفاسير**، المنصوري، ج١/ ٤١٦.

(٧) **حاشية الطيبي على الكشاف**، ج٣/ ٢٧.

«فنبه على أن يكون الإنفاق عليهم من فضلاتها المكتسبة»[١].

فألمح بهذا الحرف الرقيق « ألا يجعلوا بعض أموالهم رزقاً لهم، بل أمرهم أن يجعلوا الأموال ظروفاً للرزق حتى يكون الإنفاق من الربح لا من نفس المال الذي هو الظرف، وهو تشبيه للربح الحاصل من المال بالشيء المظروف فيه المتمكن، وفيه إشارة إلى أنه هو المقصود من ذلك المال[٢].

«وكأنه أوجب عليهم ذلك[٣]،» فعبر بالظرف إشارة إلى الاقتصاد واستثمار الأموال حتى لا تزال موضعا للفضل حتى تكون النفقة والكسوة من الربح لا من رأس المال»[٤].

وفي ذلك تنبيه على ما قاله عليه الصلاة والسلام: « **ابتغوا في أموال اليتامى لا تأكلها الزكاة**»[٥]، فالمستحب أن يكون الإنفاق عليهم من فضلاتها المكتسبة[٦].

فلما كانت الأموال ظروفًا للأرباح، كانت ظروفًا لرزق الأيتام أيضا، فأشار ب(في) إلى الظرفية لا بمعنى (من) التبعيضية[٧].

فكان في هذا الحرف (في) بيان طريق كونها مكانًا ومحلًا لرزقهم، فشبه تحصيل الرزق وحصوله وتقريره في رأس المال بتقرر المتمكن في مكانه، وحصوله فيه، فاستعمال كلمة (في) موضوعة للمشبه به في المشبه[٨].

والمقصود أن تجعل أموالهم مكانا لرزقهم، ومعنى المكان هذا مستفاد من لفظ

---

(١) **تفسير الراغب الأصفهاني**، الأصفهاني، ج٢/ ١١٠٢.
(٢) **حاشية الشهاب على البيضاوي**، الشهاب الخفاجي، ج٣/ ٢٠٩.
(٣) **الكشف والبيان**، الثعلبي، ج٦/ ٢٥٣، وانظر: **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، النيسابوري، ج٢/ ١٢، **ومفاتيح الغيب**، الرازي، ج٩/ ١٩٣، **وحدائق الروح والريحان**، الهرري، ج٥/ ٣٩٤.
(٤) **أنوار التنزيل**، البيضاوي، ج٢/ ٦٠. وانظر: **نظم الدرر**، البقاعي، ج٥/ ١٩٦.
(٥) أخرجه الطبراني في **المعجم الوسيط**، ج١، ص٢٩٨، حديث رقم: (٩٩٨)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزيادته، رقم(٨٧).
(٦) **البحر المحيط**، أبو حيان، ج٣/ ١٧٨.
(٧) **حاشية شيخ زاده على البيضاوي**، محمد بن مصلح القوجوي، ج٣/ ٢٦٢، وانظر: **روح المعاني**، الألوسي، ج٢/ ٤١٤، **وفتح القدير**، الشوكاني، ج١/ ٦٨٦.
(٨) **حاشية القونوي على البيضاوي**، إسماعيل القونوي، ج٧/ ٣٤.

(في) الموضوع للظرفية [1].

ف(في) معناها الظرفية، وهي للوعاء، وباقية على أصلها، أي: اجعلوا لهم فيها رزقا [2].

وإن الناظر في تعليل المفسرين لهذا النص الكريم يمكنه تسجيل الملاحظات الآتية:

أولًا: إن القائلين بنيابة الحرف بعضها عن بعض، لم يكن تحليلهم لهذا النص مرضيًا، ولم يجدوا مساغا إلى بغيتهم، وقد تكلفوا يسيرًا، فوقفوا عند ظاهر النص، ولم يتحدثوا عن سر اختيار هذا الحرف دون سواه وما دلالته. ولا شك أن القول بتداخل معاني الحروف، ونيابة بعضها عن بعض توجه لا يخدم النص القرآني بل يبقيه جامدًا لا روح فيه.

ثانيًا: لا يضيق عطاء القرآن عما يقولون، فلو كانت (في) بمعنى (من) أو (اللام) لما عجز القرآن عن ذكرهما، فكونه أهملهما دلّ على أنهما غير مقصودين هنا.

ثالثًا: وقف كثير من أئمة التفسير وأرباب البيان أمام روعة هذا الحرف في موضعه، وتتابعت على أقلامهم أسراره ونكاته. فالذين أجروا هذا الحرف على أصالته في الظرفية كان لهم حجة وسداد في القول، وسلكوا في ذلك مسلكًا سهلًا في تحليل هذا النص الكريم مما أوقفهم على السر فيه دون سواه، وقد قدموا في ذلك رأيًا منطقيًا مقبولًا، فقد أعربوا في تحليلهم عن السر في اختيار هذا الحرف. ووقفوا على لطائف مادة هذا الحرف بحيث لا يمكن العدول به إلى غيره.

رابعًا: كان للحرف في القرآن رسالة ومهمة، أداها ببلاغ تام، وإفصاح ظاهر، وله مدلوله الخاص به ولا ينوب عنه غيره.

خامسًا: نلمح في ثنايا هذا الحرف وأعطافه تقريراً لمنهج قويم ظاهر وهو: استثمار

---

(١) **حاشية ابن التمجيد على البيضاوي**، ابن التمجيد، ج٧/ ٣٤.
(٢) **دراسات لأسلوب القرآن الكريم**، عضيمة، ج٢/ ٢٧٢، و: ص٢٧٨.

المال، والاتّجار به، وفي ذلك نفع لصاحب المال، وللمسلمين عامة، وذلك بطرح المال في السوق وتحريكه. وهذا المعنى ناشئ من تركيب الفعل ﴿فَٱرۡزُقُوهُم﴾ مع حرف الظرفية (في)، فجعل الأموال ظرفا للرزق ومكاناً له.

سادساً: أن التعبير بحرف الجر(في) في هذه الآية كان لغرض رائع، وهدف بديع، ذلك أن إعطاء أولئك من المال لا ينبغي أن يكون من أصله، وإنما من ربحه وثمرته، هذه الدعوة العريضة_ دعوة استثمار المال _حمل لواءها هذا الحرف وحده [1].

سابعاً: إن استعمال حرف الجر (في) هنا، والعدول عن استعمال (من)، لهو مظهر من مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم، وقد همس لنا هذا الحرف بدلالات بيانية رائعة، لتنوء جمل وعبارات عن أداء ما أداه هذا الحرف في موضعه، وتلك هي رسالة الحرف في كتاب الله.

المثال الثاني:

النص القرآني: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ (النساء: ١١).

موطن الشاهد: ﴿فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾. قال: ﴿فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾. ولم يقل (بأولادكم)، فاستعمل حرف الظرفية (في) ، مع أن الظاهر أن يأتي (بالباء) التي تفيد إلصاق الإحسان بهم، ودوام صحبتهم ملازمة، بيد أن القرآن عدل عن حرف (الباء) إلى (في)؛ ذلك أن إحسان الآباء إلى أولادهم لا يحتاج إلى وصايا، فهو مخبوء في أعماق قلوبهم، ولا ينفك عنه أبداً، فتجاوز القرآن هذه المرحلة، ولم يتوقف عندها، فهو أمر فطري في النفس، لكن القرآن عند وصايا الأبناء بآبائهم جاء بحرف الجر (الباء) فقال: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ (الإسراء: ٢٣)، وكثيراً ما تكرر مثل هذا في القرآن؛ لأنه أراد من الأبناء إحساناً ملازماً لآبائهم مستمرا ملتصقاً بدوام صحبتهم.

فما السر من استعمال حرف الجر (في) عند وصية الوالدين بالأبناء، وخاصة

---

(١) **إعجاز القرآن الكريم**، فضل عباس، ص١٩٠- ١٩١.

عند الحديث عن توزيع الميراث، وعدوله عن حرف الجر (الباء).

وتحاول هذه الدراسة أن تتبع مواقع أقدام المفسرين، وأن تستنهج سبيلهم، علَّها تقف على السر في أحقية (في) في موضعها، غير أن سواها لا يسد مسدها، ولا ينوب عنه، وذلك اختيار رب العالمين، وهو اختيار حكيم لا ريب فيه، وهذا ما تتكشف عنه هذه المحاولة.

رأي المفسرين:

لقد تتبعت أقوال المفسرين في مظانها فلم أقف على شيء مرضٍ في تحليل هذا النص الكريم، ولم تتجاوز عباراتهم عن قولهم: ﴿فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾، أي: في شأن ميراثهم، ثم يمرون عنها مرور الكرام، غير أن ابن عاشور قد ألمح الماحاً إلى استعمال (في) للظرفية المجازية فقال:» و(في) هنا للظرفية المجازية، جعلت الوصية كأنها مظروفه في شأن الأولاد لشدة تعلقها به كاتصال المظروف بالظرف، فجعل الوصية مظروفة في هذا الشأن؛ لشدة تعلقها به، واحتوائه عليها»[1].

غير أنه –كذلك– لم يوجه دلالة وجود هذا الحرف بلاغياً وبيانياً، فإن التناظر في جماليات النص الحكيم، يتطلب غاية لإقحام هذا الحرف في مكانه، ذلك أن للقرآن منهجيةً مطردة في طرحه للمفردات فإنها لم تقصر فيه قصرًا أبدًا.

ومن خلال النظر في كتب التفسير في تحليلهم لهذا النص نلمح ما يأتي:

أولًا: أن سهام المفسرين في تحليلهم لهذا النص الكريم لم تكن نافذة، وما كان لهم شمولية ودقة. فإن التفاسير–عامة –لم تلتفت إلى دلالة إيراد هذا الحرف في باب الوصية بالأبناء. ولم يذلل لهم القول ولم يمهدوا للصواب فيه.

ثانيًا: لم يكن تعليل ابن عاشور مرضيًا، على الرغم من محاولته جاهدًا في ذلك، فقد أطل على الحق وأشرف عليه، بيد أنه لم يفسر لنا دلالة وجود هذا الحرف في هذا السياق بلاغيًا.

ثالثًا: إن مزيداً من التأمل والنظر في أعطاف هذه الآية قد يوقفنا على السر في اختيار

(١) **التحرير والتنوير**، ابن عاشور، ج٤، ٢٥٧.

(في) في موضعها هذا، ولعلنا نسترشد إلى الرأي السديد في تحليل هذا النص.

فالله تبارك وتعالى يوصي الوالدين بالعدل في توزيع الميراث على ما ارتضاه الله شرعاً لخلقه؛ لما له من أبلغ الأثر في نفوس الأبناء، وكأن القرآن يقول للآباء: إنكم حين تقسمون التركات بين أبنائكم إنما تتعدون ظواهرهم، وتغرسون في قلوبهم المودة، وإذا جُرْتم بالقسمة سيملؤون قلوبهم حقدًا وكراهية، واعلموا أن مجاوزة العدل الذي شرعه الله بمثابة الطعنة النافذة في قلوب أبنائكم، فعدّى فعل الإيصاء ب (في) الظرفية حين كان الموصى لهم هم الآباء، والموصى به هو العدل بينهم، والموصى فيه هو قلوب الأبناء[1].

رابعاً: يتجلى من إعمال (في) على دلالتها على الظرفية أن العدل في تقسيم الميراث سيشيعُ جواً من المحبة والمودة بين الأخوة، بحيث يحيطهم من كل مكان كإحاطة الظرف بالمظروف، وكأنهم أغرقوا في بحر من المحبة والوداد، وغير ذلك إن وقع الظلم في تقسيم الإرث فسيحيط بهم الحقد من كل مكان، وستشيع ظلال الكراهية، وكما أحاطت بهم قد نفذت إلى أعماق قلوبهم واستقرت هناك.

خامساً: إن تحليل النص الكريم بهذا العمق في التأمل يظهر السمو والارتقاء في المنهج القرآني الفريد، وأنه باب واسع من أبواب الفهم في أسرار السياقات، تتجلى فيه ظاهرة من ظواهر الإعجاز البلاغي الراقي في نمط فريد من الطرح.

سادسًا: استطاع هذا الحرف وحده–وببلاغ تام– أن يرسم ظلالين متناقضين، ظلال المحبة والمودة تشيع وتنتشر وتملأ القلوب عند العدل في القسمة، وظلال الحقد والكراهية تشيع وتملأ القلوب عند الجور فيها.

وكأنه يراعي الأساس النفسي في دلالته، فاستطاع القرآن أن يوظف اللغة مختاراً منها ما له الأثر الأكبر في نفسية قارئه، بما أشاع من دلالات لغوية.

---

(١) انظر: **من أسرار حروف الجر**، الخضري، ص١٩٣.

المطلب الثاني: حرف الجر (الباء) ودلالته البلاغية:

معنى (الباء) الرئيس: هو الإلصاق، وهو الأشهر فيها [1].

وهو معنى لا يفارقها، والإلصاق حقيقي ومجازي، فمن الإلصاق الحقيقي قولك: أمسكت بمحمد، إذا قبضت على شيء من جسمه، ومن الإلصاق المجازي قولك: مررت بزيد، بمعنى: ألصقت مروري بمكان يقترب منه، وليس على معنى أنك ألصقت نفسك به في مرورك [2].

وبتتبع النصوص القرآنية اتكاءً على معنى الإلصاق (للباء)، سيوحي لنا بأسرار عظيمة، ونستجلي دلالاته التي يشيعها في النظم الحكيم، بما يتماشى والمنهج الذي ارتأيناه وهو إجراء الحرف على الأصيل من معناه، بدلا من القول بتعدد معاني(الباء)، ونيابة بعض الحروف عنها، وهذا القول يترك النص دونما استجلاء لظلاله البيانية.

وهذه أمثلة على (الباء) انتقيتها من سورة النساء، ونصبتها أمثلة ظاهرة الدلالة على بلاغات القرآن عند إجراء (الباء) على معناها الحقيقي وهو الإلصاق، مستأنسين بأساس نعتمد عليه، وركن نأوي إليه، ورافد هام لفهم الآي، وهو: كتب التفسير وأرباب البيان.

المثال الأول:

النص القرآني: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا ﴾ (النساء: ٣٦).

موطن الشاهد: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾.

فعدى فعل الإحسان بالوالدين بحرف الإلصاق (الباء)، ولم يتعدّ ب(إلى)، كما لم يتعدّ ب(اللام) مثلاً، فإن فعل الإحسان يمكن أن يتعدى ب(الباء) كما في الآية، أو ب(إلى)، كما قال الله: ﴿ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ ﴾ (القصص: ٧٧) أو ب(اللام)، كما

---

(١) **معاني النحو**، السامرائي، ج٣/ ١٧، وانظر: **شرح الرضي على الكافية**، ج٤/ ٢٨٠، **والذخيرة**، للقرافي، ج ١/ ٧٤، **والفروق اللغوية**، العسكري، ص٢٥٤، **والفتاوى الكبرى**، ابن تيمية، ج ١/ ٢٧٧، **ودراسات لأسلوب القرآن الكريم**، عضيمة، ج٢/ ٣.

(٢) **مغني اللبيب**، ابن هشام، ج ١/ ١٣٧.

في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾(الإسراء: ٧).

- فما هي مسوغات القرآن في إيثار هذا الحرف دون سواه، وذلك مع الوصايا بالوالدين؟
- وما هي الظلال التي يشيعها هذا الحرف على السياق القرآني المعجز؟

وتستنفذ هذه الدراسة وسعها في محاولة التكشف عن السر في اختيار هذا الحرف في مكانه.

آراء المفسرين:

تباينت آراء المفسرين حول تعدية فعل الإيصاء إحساناً بالوالدين بحرف الإلصاق (الباء)، فمنهم من قال: إنما يتعدى بالباء إذا تضمن معنى العطف [١]، فأعمل التضمين في النص الكريم، وقال أبو عبيدة: مختصر؛ تفعل العرب ذلك، فكان في التمثيل: واستوصوا بالوالدين إحسانًا [٢]. أي: استعاض القرآن عن استعمال: واستوصوا بالوالدين إحساناً بقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ فاختصر ذلك، فيراه أبو عبيدة اختصارًا من القرآن، فاختصر بقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ قوله: واستوصوا بالوالدين إحسانا، أو وأمركم بالوالدين إحساناً، يعني براً بهما، وهذا من أساليب العرب، ولذلك نصب «الإحسان»، لأنه أمر منه جل ثناؤه بلزوم الإحسان إلى الوالدين على وجه الإغراء.

أما الشيخ زاده: فمّر عليها مرورًا فقال:» وفعل الإحسان يتعدى بكلمة(إلى)، وبـ(الباء) أيضاً، يقال: أحسنت بفلان وإلى فلان»[٣].

وقيل: إنما أغراهم بالإحسان إلى الوالدين [٤].

والقائلون بهذا لم يقدموا تحليلاً بلاغياً لاختيار حرف الجر (في) دون سواه، إنما تركوا النص على ظاهره.

---

(١) **روح المعاني**، الألوسي، ج٢/ ٧٩، وانظر: **المنار**، رشيد رضا، ج٥/ ٨٤.
(٢) **مجاز القرآن**، أبو عبيدة، ج١/ ١٢٦.
(٣) **حاشية شيخ زاده على البيضاوي**، ج٣/ ٣٢٠.
(٤) **زاد المسير**، ابن الجوزي، ج٢/ ٧٩.

أما الذين أجروا (الباء) على دلالتها على الإلصاق: فقد أشرفوا على الحق وأصابوه، «فجاء التعبير القرآني ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾، ولم يقل: (وإلى الوالدين)، لأن المطلوب مباشرة الإنسان بالإحسان إلى والديه، لا إيصال الإحسان فقط، ولو قال: (إلى الوالدين)، كان المطلوب إيصال الإحسان فقط [١].

«فعدّي بالباء إذ أريد به الإحسان المتعلق بمعاملة الذات وتوقيرها وإكرامها، وهو معنى البر، ولذلك جاء:»﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ (يوسف: ١٠٠)، ولو أريد به إيصال النفع المالي عدّي بـ (إلى): تقول: أحسن إلى فلان، إذا وصله بمال ونحوه»[٢].

فتعديته ب(الباء) دالة على الإلصاق، ويفيد أن المطلوب هو أن يتصل البر والإحسان بمن طُلب له البر والإحسان دون انفصال، ولا حصول مسافة بينهما، وهذا فيه من الدلالة على تأكيد طلب الإحسان بالوالدين والعناية بهما ما ليس في التعدية بكلمة(إلى) [٣].

«فكانت التعدية ب(الباء) أبلغ؛ لاستشعارها بإلصاق الإحسان بمن يوجه إليه، من غير إشعار بالفرق بينه وبين المحسن، أما التعدية ب(إلى)،فإنها تشعر بطرفين متباعدين يصل الإحسان من أحدهما إلى الآخر»[٤].

ولا ريب أن الإلصاق في هذا المقام أبلغ في تأكيد العناية والإحسان بالوالدين، ومن هنا لم يُعَدّ لفظ الإحسان ب(الباء) في القرآن إلا حيث أريد ذلك التأكيد [٥].

وإن التأمل في أقوال المفسرين في تحليلهم لهذا النص الكريم يوقفنا على ما يأتي:

أولًا: أن القائلين بالتضمين والنيابة لم يلحظهم التوفيق في بيان السر من اجتلاب (في) في هذا الموطن، فلم يعالجوا النص الحكيم معالجة مرضية، ففاتهم البيان، إذ

---

(١) **تفسير سورة النساء**، ابن عثيمين، ص٣٠٩.
(٢) **التحرير والتنوير**، ابن عاشور، ج٥ / ٤٩.
(٣) **صفوة الآثار والمفاهيم**، عبد الرحمن الدوسري، ج٥ / ٣١٦.
(٤) **المنار**، رشيد رضا، ج٥ / ٨٤.
(٥) **من أسرار التعبير في القرآن الكريم**، عبد الفتاح لاشين، ص١١٩.

جهدوا أنفسهم دونما وقوف على الصواب، فلا يبدو في تعليلهم إلا التكلف، فقد سلكوا طريقا وعرًا غير بيّن.

ثانيًا: إن الذين أجروا (الباء) على مدلولها الأصيل ذكروا تفصيلات وفروعاً لم يلتفت إليها القائلون بالنيابة والتضمين، فقد حجبوا أنفسهم عنها.

ثالثًا: إن القائلين بأن (الباء) بمعنى (إلى) قد صرفوا النص عن مراده، فإنّ فعل الإحسان إذا تعدى (بالباء) فله مراده، وإذا تعدى بغيره فله غرضه كذلك. فقوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ (يوسف: ١٠٠)، فقال: (بي) ولم يقل (إليّ) فإنه يتأدب مع ربه، ويستشعر ملازمة إحسان الله إليه طول دهره، فهي لم تنفك عنه لحظة، فاستعمل (الباء) الدالة على الملازمة والملاصقة، فإن عناية الله ورحمته به لم تغفل عنه لحظة من اللحظات، ولو قال: (أحسن إلي) لما استقام المعنى، فإنه لم يقصد أن الله أوصل إليه الإحسان ثم تركه، بل إحسان الله صاحبه ولم يفارقه، ومثل هذا الأدب لا يغيب عن نبي الله يوسف عليه السلام.

رابعاً: أطلّ الزركشي على هذه اللفتة باستعمال (الباء) في فعل الإحسان فقال: أحسن (بي)؛ لأنه إحسان درج فيه، دون أن يقصد الغاية التي صار إليها [1].

خامساً: استطاع صاحب المنار أن يتلمّس السر في اختيار حرف (الباء) في موضعه، فأشار إلى أن حرف (الباء) أشاع ظلال القرب بين المحسن والمحسن إليه، بحيث اختلطا وتصاحبا وتلازما، فهو إحسان يشوبه الرحمة والعطف والقرب والمودة وفيه معيّة ظاهرة بين الطرفين، لا إحساناً جامداً لا روح فيه يقتصر على إيصال الإحسان من أحدهما إلى الآخر فقط.

وهذا ملحظ دقيق ينبغي أن يكون عليه الأبناء تجاه آبائهم من حيث الملازمة

(١) **البرهان في علوم القرآن**، الزركشي، ج٤ / ١٧٦.

والمصاحبة وهو ما أشارت الآية الكريمة:﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (لقمان: ١٥)، ففيهما معنى الصحبة والملازمة، وهو ما ألمح إليه الحديث الشريف:» **الزم رجلها فثمّ الجنة**»[1].

سادساً: همس حرف الجر(الباء) في هذه الآية بمدى حاجة الأبناء لآبائهم وضرورة الالتصاق بجنابهم، فثمّ الفلاح والنجاة، أما الوالد فهو أوسط أبواب الجنة، وأما الأم فالجنة عند رجليها، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

سابعاً: إن إجراء (الباء) على مدلولها الأصيل في دلالتها على الإلصاق مهد لفهم النص الكريم بما يتناغم وبلاغة النظم، فكان الأهدى إلى المعنى المقصود. وكان ظاهر الدلالة على قدسية النص الحكيم.

المثال الثاني:

النص القرآني:﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ (النساء: ٤٢).

موطن الشاهد: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ﴾.

قال:﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ﴾ ولم يقل (لو تسوى عليهم) فعدل من (على) إلى (الباء)، فما سر هذا العدول؟ وهل له غاية ورسالة؟ وعند الوقوف على سر هذا الحرف ودلالته، إنما نقف على جماليات النص القرآني.

آراء المفسرين:

تغايرت آراء المفسرين في تعرضهم لهذا النص الحكيم، فمنهم: القائلون بالنيابة في الحروف، فقالوا: معناها: أنهم يودون أن الله يسوي بهم الأرض، إما على أن الأرض تنشق وتبتلعهم، وتكون (الباء) بمعنى (على). «لقوله تعالى:﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، حديث رقم: (٢٧٨١)، والطبراني في **المعجم الكبير**، حديث رقم: (٨١٦٢)، وأسناده حسن.

بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ﴾ (آل عمران: ٧٥) [١]، ومنهم من جعلها للسببية، أي: بسبب دفنهم، أو بمعنى (مع) [٢].

فيكون المعنى: لو تنشق الأرض ويكونون فيها، وتتسوى هي في نفسها عليهم، و(الباء) بمعنى (على) [٣]. على أن المعنى: لو تسوى عليهم الأرض.

ومن المفسرين: من أجرى (الباء) على الإلصاق والاختلاط، فقال ابن عاشور: وقوله (تَسَّوى) قراءة نافع، وابن عامر، وأبي جعفر، بفتح التاء وتشديد السين، فهو مضارع (تَسَوّى) الذي هو مطاوع سَوّاه، إذا جعله سواءً لشيء آخر، أي: مماثلا؛ لأن السواء المثل.

وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو ويعقوب: (تُسَوّى) بضم التاء، وتخفيف السين، مبنياً للمجهول، أي: تُمَاثَل، والمماثلة المستفادة من التسوية تحتمل أن تكون مماثلة في الذات، فيكون المعنى: أنهم يصيرون تراباً مثل الأرض، ويحتمل أن تكون مماثلة في المقدار، فقيل: يودون أنهم لم يبعثوا، وبقوا مستوين مع الأرض في بطنها، وقيل: يودون أن يدفنوا حينئذٍ كما كانوا قبل البعث. والأظهر عندي: أن المعنى التسوية في البروز والظهور، أي: أن ترتفع الأرض فتسوى في الارتفاع بأجسادهم فلا يظهروا، وذلك كناية عن شدة خوفهم وذلهم، فينقبضون ويتضاءلون حتى يودوا أن يصيروا غير ظاهرين على الأرض [٤].

فكأن المعنى: يدخلون فيها حتى تعلوهم [٥]، فيودون لو تخرقت بهم الأرض فساخوا فيها [٦].

فعلى قراءة (تُسوى) بالضم، تكون الأرض نائب عن فاعل وعلى قراءة الفتح

---

(١) **اللباب في علوم الكتاب**، ابن عادل، ج٦/ ٣٨٩.
(٢) **حاشية الطيّبي على الكشاف**، ج٢/ ١٠٣.
(٣) **البحر المحيط**، أبو حيان، ج٣/ ٢٦٣، وانظر: **حاشية ابن التمجيد على البيضاوي**، ج٧/ ١٦٧.
(٤) **التحرير والتنوير**، ابن عاشور، ج٥ / ٥٩.
(٥) **مجاز القرآن**، أبو عبيدة، ج١/ ١٢٨.
(٦) **رموز الكنوز**، عبد الرزاق الحنبلي، ج١/ ٥١٣، وانظر: **معاني القرآن**، الزجاج، ج٢/ ٥٤.

تكون الأرض فاعلاً، ومعنى(تُسوى)، أي: يدفنون فيها ولا يظهرون فيها كأنهم جزء من الأرض ولا يحاسبون [٧].

فإن جعلت (لو) مصدرية، فالجملة مفعول ليود، أي: يودون أن يدفنوا فتسوى بهم الأرض كالموتى، وقيل: يودون أنهم لم يبعثوا أو لم يخلقوا، وكأنهم والأرض سواء، وقيل تصير البهائم ترابا فيودون حالها. وإن جعلت على بابها، فالمفعول محذوف لدلالة الجملة عليه، أي: يودون تسوية الأرض بهم، وجواب (لو) أيضا محذوف؛ إيذانا بغاية ظهوره، أي: لَسرُّوا بذلك [٨].

ففي قراءة (تَسّوَّى)، اتساع، لأن الفعل مسند إلى الأرض، وليس المراد: ودوا لو صارت الأرض مثلهم، وإنما المعنى: ودوا لو يستوون بها، والمعنى: ودوا لو تخرقت بهم الأرض، وودوا لو أنهم لم يبعثوا ؛ لأن الأرض كانت مستوية بهم قبل خروجهم منها [٩].

وحجة من قرأ بضم التاء: أنه جعله فعلاً لم يسمّ فاعله، من التسوية، مثل قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ (القيامة: ٤)، وأقام الأرض مقام الفاعل، على معنى: لو يجعلون والأرض سواء، أي تراباً، كما فعل بالبهائم.

وحجة من فتح التاء، وشدّد السين أنه بنى الفعل على (يتفعل) فأسنده إلى الأرض فارتفعت بفعلها، وأصله (تتسوى)، ثم أدغم التاء، وهي الثانية في السين، فهو في العلة والحجة مثل (تساءلون به)، وفي الكلام اتساع ؛ وذلك أنه جعل الأرض تتسوى بهم، وليس لها فعل، والمراد به المخبر عنهم، وهم الذين كفروا، يودون: لو يصيرون يتسوون بالأرض، وهو مثل: ألقم فاهُ الحجرَ، لما علم المعنى اتسع فيه، فأقيم الذي

---

(٧) **تفسير سورة النساء**، ابن عثيمين، ص٣٣٨، وانظر: **مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد**، محمد الجاوي، ج١/ ١٩٩.

(٨) **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، أبو السعود، ج١، ٦٩٩، وانظر: **غرائب القرآن**، النيسابوري، ج٢/ ٤١٧، **وروح المعاني**، الألوسي، ج٣/ ٣٤، و**المنار**، رشيد رضا، ج٥/ ١١٠، **وأضواء البيان**، الشنقيطي، ج١، ٣٨٨.

(٩) **زاد المسير**، ابن الجوزي، ج٢/ ٨٦، **ومفاتيح الغيب**، الرازي، ج١٠/ ١٠٩. وانظر: **المحرر الوجيز**، ابن عطية، ج٢/ ٥٥، **وباهر البرهان**، النيسابوري، ج١/ ٣٩٦، **والدر المصون**، السمين الحلبي، ج٣/ ٦٨٦.

ليس له معنى مقام الفاعل إذ لا يشكل [1].

فهو من باب القلب؛ لأنهم ودوا أن يصيروا مثل الأرض، لا أن تصير الأرض مثلهم [2].

وكل هذه القراءات متقاربات المعنى، وبأي ذلك قرأ القارئ فمصيب، لأن من تمنى منهم أن يكون يومئذٍ ترابًا، إنما يتمنى أن يكون كذلك بتكوين الله إياه كذلك، وكذلك من تمنى أن يكون الله جعله كذلك، فقد تمنى أن يكون ترابًا [3].

فتمنوا أن تكون الأرض مستوية معتدلة بهم، ولا تكون كذلك إلا وقد غيبتهم واستوت بهم، ولم يبق فيها شيء من عوج، بسبب أحد منهم ولا شيء من أجسادهم [4].

وكأنهم تمنوا إذ لم يبعثوا ولم يخلقوا في الآخرة، أو لم يخلقوا في الدنيا لكانوا من جنس الأرض [5].

ومن خلال النظرة الموازنة لأقوال المفسرين يمكن رصد الملاحظات الآتية:

أولًا: إن القائلين بالنيابة في الحرف أضاعوا الفائدة التي تحرزها (الباء) في موضعها وصرفوا اهتمامهم عن تدبر أسرار الكتاب.

ثانيًا: لو قصد القرآن هذا المعنى لأتى ب(على) واستغنى عن (الباء)، ولا يعجزه ذلك، وقد أحاط الله بكل شيء علما، لكنّ (على)، تعجز عن الوفاء بأغراض النظم ودواعيه، وإن من أغراض النظم: ما يتطلب كلًا في موضعه.

ثالثًا: مجيء (الباء) له دلالته وظلاله وإيحاءاته التي يضفيها على النص الحكيم،

---

(١) **الكشف عن وجوه القراءات السبع**، مكي بن أبي طالب، ج١/ ٣٩٠-٣٩١. وانظر: **معاني القرآن**، النحاس، ج٢/ ٩٠-٩١. **ومعاني القرآن**، الفراء، ج١/ ٢٦٩-٢٧٠.

(٢) **غرائب التفسير وعجائب التأويل**، محمود الكرماني، ج١/ ٢٩٧. **ومفاتيح الغيب**، الرازي، ج١٠/ ١٠٩.

(٣) **جامع البيان**، الطبري، ٨/ ٣٧٢. وانظر: **الحجة للقراء السبع**، الفارسي، ج٣/ ١٦١-١٦٢، **والبدور الزاهرة**، النشار، ج١/ ٢٧١، **وإتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر**، البنا، ج١/ ٥١٢.

(٤) **نظم الدرر**، البقاعي، ج٥/ ٢٨٤.

(٥) **حاشية القونوي على البيضاوي**، القونوي، ج٧/ ١٦٧.

فيزيده بياناً ودقةً وغناءً.

رابعاً: إن إجراء (الباء) على دلالتها على الإلصاق والاختلاط ليوقفنا على السر في إقحام هذا الحرف في موضعه فإن «ترك إعمال (الباء) على أصالتها ستضيع معها المبالغة التي يؤديها هذا الحرف، ويضيع معها ما يهدف إليه النظم من أن ما يراه الكافرون يوم القيامة من أهوال وما يتكشف لهم من سوء العذاب يجعلهم يتمنون أن يكونوا تراباً يتداخل مع تراب الأرض، ويختلط به، حتى لا يكون لهم أثر يدل عليهم، وهذا هو معنى الإلصاق والاختلاط الذي يشرق من (الباء)، وهو ينسجم تماماً مع ما صرح به القرآن في آية أخرى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ (النبأ: ٤٠)»[1].

خامسًا: لا يؤدي هذا المعنى سوى(الباء) ولو استبدلنا (على) ب(الباء) [2]، لما أدت هذا الغرض البديع، فقد ألمحت (الباء)، إلى مدى الخوف الذي تملك هؤلاء الكفرة لما رأؤا العذاب، فتمنوا أنهم يصيرون تراباً مثل الأرض فساخوا فيها، حتى يصيروا جزءًا منها، أو لو كانوا بهائم فصاروا تراباً ونجوا مما ينتظرون، كل هذا الفزع والخوف قد وشى به هذا الحرف، وهمس بما يجول في نفوس الكافرين يوم القيامة، ولا أظن جملًا طوالًا تغني عن هذا الحرف البديع، وتؤدي الغرض الذي أداه بصمت عجيب، وتلك هي رسالته.

المطلب الثالث: حرف الجر (على) ودلالته البلاغية:

سنعمل أشهر معاني (على)، وهو الاستعلاء، ولن نعدل به إلى غيره.» فإن (على) للاستعلاء، –حقيقة كان أم مجازًا–، ولفظها يدل على ذلك، فهو من العلو، فمن الاستعلاء الحقيقي قولك: هو على الجبل، وحمله على ظهره، ومن الاستعلاء المجازي

---

(١) **من أسرار حروف الجر**، الخضري، ص١٨٧.

(٢) (الباء) تلحق بالمتروك، أي لو وضعنا (على) وتركنا (الباء) ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ (البقرة: ٦١)، فتركوا الخير وأخذوا الذي هو أدنى. ومنه: قولهم: استبدلت الثوب الجديد بثوب قديم.

قولهم: عليه دين، كأن الدين علاه وركبه، ولذا تقول العرب: ركبتني الديون، كأنه يحمل ثقل الدين على عنقه، أو على ظهره، وتقول: هو عليهم أمير، لاستعلائه عليهم من جهة الأمر، فإن أمره أعلى وأنفذ من أمرهم [1].

فالاستعلاء أشهر معانيها، سواء أكان ذاتياً نحو: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾(هود: ٤٤)، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (الرحمن: ٢٦)، أو معنوياً نحو: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ (المائدة: ٤٥) [2].

وظاهر قول النحاة وأرباب اللغة: أنهم يجرون (على) في استعلائها، وإننا نترسم خطاهم، ونستنتج سبيلهم؛ كي نتلمس أسرار هذا الحرف في الذكر الحكيم، عسى أن نسدد الرأي، ونقف على المراد، ونخط طريقاً بيّناً واضحاً لفهم أسرار الحروف، ونخط -كذلك- سبيل العلم والدّرس لمن أراد تأمل إيحاءات الحروف في القرآن الكريم، وبهذا تظهر رفعة القرآن وجلاله في استعمال الحروف كل في موضعه.

مثال:

النص القرآني: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ **(النساء: ١٧).**

موطن الشاهد: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾.

فقال﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾، ولم يقل (من الله)، والظاهر أن يستعمل (من)، غير أن القرآن آثر استعمال (على) وعدل عن (من).

وتتوخى هذه الدراسة بيان السر في انتقاء هذا الحرف دون سواه، وستنفذ وسعها في محاولة التكشف عن ملامح هذا الحرف في هذا السياق.

آراء المفسرين:

لا يكاد يجمع المفسرون على قول؛ ذلك أن القرآن باب واسع للتأمل والنظر، بيد أنه يوفق للصواب من أعمل قواعد النظر التدبري بغاية الوفاء.

---

(١) **الكافية في علم النحو**، ابن الحاجب، ج١/ ٥٢، وانظر: **البناية شرح الهداية**، بدر الدين العيني، ج٥/ ٥٢٢، **وشرح المفصل**، ابن يعيش، ج٤/ ٤٩٦، **ومغني اللبيب**، ابن هشام، ج٢/ ٤٧، **ومعاني النحو**، السامرائي، ج٣/ ٤١.

(٢) **التحبير شرح التحرير**، علي بن الحسن المرداوي، ج٢/ ٦٤٠.

فمنهم: من قال: إن (على) بمعنى (من)، وقيل: هي بمعنى (عند)، أي: إنما التوبة عند الله [1].

ومنهم: من يرى التضمين فقال: فجاء ب(عن)، لأنه ضمّن التوبة معنى العفو والصفح [2].

ومنهم: من استعمل المجاز، فقال: ومجازه: في ضمان الله ووعده [3].

والأكثر استعمل (على) في الاستعلاء، فهي» – هنا– حرف الاستعلاء المجازي، بمعنى التعهد والتحقق، كقولك: عليّ لله كذا، فهي تفيد تحقيق العهد، والمعنى: التوبة تَحِقُّ على الله، وهذا مجاز في تأكيد الوعد بقبولها، حتى جُعلت كالحق على الله، ولا شيء بواجب على الله إلا وجوب وعده بفضله»[4].

فمعنى كون التوبة عليه سبحانه: صدور القبول عنه تعالى، وكلمة (على) للدلالة على التحقيق البتة بحكم جري العادة، وسبق الوعد، حتى كأنه من الواجبات عليه سبحانه [5]. لكنه وجوب الكرم والفضل والإحسان، لا وجوب الاستحقاق [6].

فقبول التوبة مترتب على فضل الله، و(على) باقية على بابها، يعني من الاستعلاء [7].

ولشدة استعمال (على) في بابها الدال على الاستعلاء قال بعضهم: أنها إعلام

---

(١) **روح المعاني**، الألوسي، ج٢/ ٤٤٧، وانظر: **تفسير القاسمي**، محمد جمال الدين القاسمي، ج٥/ ١١٥٤، **وفتح القدير**، الشوكاني، ج١/ ٧٠٤، **والزيادة والإحسان**، ابن عقيلة المكي، ج٨/ ١٠٧.

(٢) **البرهان في علوم القرآن**، الزركشي، ج٣/ ٣٣٩.

(٣) **درج الدرر في تفسير القرآن العظيم**، الجرجاني، ج١/ ٤٧٤.

(٤) **التحرير والتنوير**، ابن عاشور، ج٤/ ٢٨٧–٢٨٨، وانظر: **مدارك التنزيل**، النسفي، ج١/ ٢٤١.

(٥) **إرشاد العقل السليم**، أبو السعود، ج١/ ٦٦٤.

(٦) **مفاتيح الغيب**، الرازي، ج١٠/ ٦. وانظر: **حدائق الروح والريحان**، للهرري، ج٥/ ٤٦٧، **وحاشية الطيبي**، ج٢/ ٥٥.

(٧) **الدر المصون**، السمين الحلبي، ج٣/ ٦٢٣. وانظر: **دراسات لأسلوب القرآن الكريم**، عضيمة، ج٢/ ١٨٦، **واللباب في علوم الكتاب**، ابن عادل، ج٦/ ٢٤٨.

بوجوبها عليه سبحانه كما يجب على العبد بعض الطاعات [1].

ولكن الله وعد قبول التوبة من المؤمنين، وإذا وعد الله بشيء- وكان الخلف في وعده مُحال- كان ذلك شبيهاً بالواجب [2].

(فعلى) الدالة على الوجوب مستعارة لتأكيد الوعد وعدم وقوع الخلف فيها، تشبيهاً لتقرر إنجاز الموعود بمقتض فضله وكرمه بوجوبه عليه، ولما كان ذلك تشبيهاً بالواجب صح إطلاق كلمة (على)، فإن معنى الوجوب- ههنا- عند أهل السنة: أن عادة الله جارية بقبول التوبة [3].

وإن المتفحص لآراء المفسرين يستطيع إيراد الملاحظات الآتية:

أولًا: أن (على) مرادة في مثل هذا الموضع، وروعي فيها إيحاءات مقصودة، لذلك فقد غلط من قال بتناوب الحروف، وكانت صنعته صنعة النحاة، ولم يفتشوا عن مراداته وغاياته، فوقفوا عند ظاهر النص دونما وقوف على أسراره، ولو علموا مراده لانقطعت بهم الحيل، ولو صرفوا عنايتهم لبيان مرادات (على) لوفقوا إلى الصواب.

ثانياً: إن القائلين بالنيابة بين الحروف وأن (على) بمعنى (من) أو (عند)، فوّتوا أسرار هذا الحرف في موضعه فإن (من) و(عند)، بددت إيماءات هذا الحرف وظلاله.

ثالثاً: درج أكثر المفسرين على إجراء (على) في بابها من الاستعلاء، فأطلوا على الحق وأشرفوا عليه، وقد قارب ذلك ابن عاشور، حيث صرف الحرف على الاستعلاء المجازي، بمعنى: التعهد والتحقق، والمعنى: أن الله قد أخذ العهد على نفسه أن يقبل توبة العصاة، والله لا يخلف الميعاد، وفي ذلك إغراء للعصاة بفتح أبواب الرجاء والأمل لهم، ليقبلوا على ربهم، ويتركوا ما كانوا عليه من ذنوب وآثام،

---

(١) **الكشاف**، الزمخشري، ج٢/ ٤٠، **وأنوار التنزيل وأسرار التأويل**، البيضاوي، ج٣/ ٢٨٢.
(٢) **اللباب في علوم الكتاب**، ابن عادل، ج٦/ ٢٤٨.
(٣) **شيخ زاده على البيضاوي**، ج٣/ ٢٨٢، وانظر: **تأويلات أهل السنة**، الماتريدي، ج١/ ٣٧٩، **وتفسير سورة النساء**، ابن عثيمين، ص١٣٩، **وحاشية القونوي على البيضاوي**، ج٧/ ٧٥، **وحاشية ابن التمجيد على البيضاوي**، ج٧/ ٧٥.

وفي ذلك أوسع أبواب اللطف والرحمة من الله لعباده، فهو يقطع عليهم أبواب اليأس والقنوط، وينشر لهم الرحمة بأوسع أبوابها.

وكأن الله يدعوا العبد الآبق أن يرجع إلى رحاب سيده وفي غاية اللطف، وذلك بالعهد الذي قطعه على نفسه، فما أعظم عطاء الله، وما أجل رحمته.

رابعًا: كل قول يفسر (على) بغير استعلائها إنما يفوت كل هذه الإيحاءات والظلال التي أشاعها هذا الحرف، فهل يغني عنه حرف آخر أو جمل طوال؟

الخاتمة:

لقد بدا الحرف في كتاب الله ملمحاً ظاهراً دالاً على إعجازه، وكان له نمطه المعجز، ومنهجيته المطّردة، حتى غدا مقصدًا من مقاصد الذكر الحكيم، وقد وفى بأغراض النظم ودواعيه بصمت عجيب، فأدى رسالته ببلاغ تام، واهتدى إلى المعنى المقصود، بأخصر طريق، وأيسر سبيل، فكان هيّناً غير متعذّر، فرسم ظلالًا من المعاني تعجز عنها جمل طوال.

التوصيات:

أولًا: أوصي طلبة العلم أن يعملوا الفكر والنظر للوقوف على أسرار الحرف في كتاب الله.

ثانيًا: أن يتبنى هذا الأمر إحدى الجامعات فتطرح مادة الحرف في كتاب الله للدراسة والبحث، بحيث يستوعب القرآن كاملًا، وذلك برسائل علمية متخصصة.

المصادر والمراجع

❖ **إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر**، البنا، أحمد، ط ١، بيروت، عالم الكتب، ١٩٨٧م.

❖ **الاستدلال في معاني الحروف، دراسة في اللغة والأصول**، كرّوم، د. أحمد، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩م.

❖ **أسرار التشابه الأسلوبي في القرآن الكريم**، عبود، سلتاغ، ط ١، دار المحجة البيضاء، ٢٠٠٣م.

❖ **أسرار العربية**، الأنباري، عبد الرحمن ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.

❖ **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، الشنقيطي، محمد الأمين، د. ط، دار عالم الفوائد، د. ت

❖ **الإعجاز البياني للقرآن**، عبد الرحمن، عائشة، ط٣، القاهرة، دار المعارف.

❖ **إعجاز القرآن الكريم**، عباس، فضل، د.ط، عمان، دار الفرقان، ١٩٩١م.

❖ **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، البيضاوي، د. ط، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د. ت

❖ **باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن**، النيسابوري، محمود، رسالة علمية، سعاد بابقي، جامعة أم القرى، ١٩٩٨.

❖ **البحر المحيط**، الأندلسي، أبو حيان، ط ١، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م.

❖ **البدور الزاهرة في القراءات العشر المتوازة**، النشار، ط ١، بيروت، عالم الكتب، ٢٠٠٠م.

❖ **البرهان في علوم القرآن، الزركشي**، د. ط، مكتبة دار التراث، د. ت

❖ **البناية شرح الهداية**، العيني، بدر الدين، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م.

❖ **تأويلات أهل السنة**، السمرقندي، محمد الماتريدي، ط ١، بيروت، مؤسسة الرسالة ناشرون، ٢٠٠٤م.

❖ **التحبير شرح التحرير**، المرداوي، علي بن حسن، ط ١، السعودية، مكتبة الرشيد، ٢٠٠٠م.

❖ **التحرير والتنوير**، بن عاشور، بن عاشور، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

❖ **تفسير أبي السعود**، العمادي، محمد، د.ط، مكتبة الرياض الحديثة، د. ت

❖ تفسير البغوي، **معالم التنزيل**، البغوي، الحسين بن مسعود، ط ١، الرياض، دار طيبة، ١٩٨٩م.

❖ **تفسير الراغب الأصفهاني**–تحقيق: عادل الشّدي، ط ١، مدار الوطن للنشر، ٢٠٠٣م.

❖ تفسير القاسمي، **محاسن التأويل**، القاسمي، محمد جمال الدين، ط ١، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٧م.

❖ **تفسير القرآن الحكيم**، المنار، رضا، محمد رشيد، ط ١، مطبعة المنار، ١٣٢٨ه.

❖ **تفسير المراغي**، المراغي، أحمد مصطفى، ط ١، مطبعة مصطفى البابي، ١٩٤٦م.

❖ **تفسير الملا علي القاري**، الحنفي، علي بن سلطان، ط ١، بيروت، دار الكتب

العلمية، ٢٠٠٣م.

❖ **تفسير سورة النساء**، ابن عثيمين، ط ١، دار ابن الجوزي، ١٤٣٠ه.

❖ **تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، النيسابوري، الحسن بن محمد، ط ١، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٩٩٦م.

❖ **تناوب حروف الجر في لغة القرآن**، عواد، محمد حسن، ط ١، عمان، دار الفرقان، ١٩٨٢م.

❖ **جامع البيان عن تأويل القرآن**، الطبري، محمد بي جرير، تحقيق: التركي، ط ١، القاهرة، الفجر للنشر، ٢٠٠١م.

❖ **جامع البيان عن تأويل القرآن**، الطبري، محمد بي جرير، ط٢، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، د. ت

❖ **حاشية ابن التمجيد على تفسير البيضاوي**، الرومي، مصطفى، ط ١، لبنان، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م.

❖ حاشية الشهاب، **عناية القاضي وكفاية الراضي**، الخفاجي، الشهاب، د.ط، دار صادر، بيروت، د. ت

❖ **حاشية القونوي على تفسير البيضاوي**، الحنفي، إسماعيل، ط ١، لبنان، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م.

❖ **حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي**، مصلح الدين، محمد، ط ١، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م.

❖ **الحجة للقراءات السبعة**، الفارسي، أبو علي، ط ١، دار المأمون للتراث، ١٩٨٧.

❖ **حدائق الروح والريحان**، الهرري، محمد الأمين، ط١، دار طوق النجاة، ٢٠٠١م.

❖ **الخصائص**، بن جني، عثمان، تحقيق: محمد النجار، ط٣، بيروت، عالم الكتب، ١٩٨٣م.

❖ **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، الحلبي، السمين، د.ط، دار القلم، دمشق، د. ت

❖ **دراسات لأسلوب القرآن الكريم**، عضيمة، محمد، د.ط، القاهرة، دار الحديث، د. ت

❖ **درج الدرر في تفسير القرآن العظيم**، المنسوب إلى الجرجاني، عبد القاهر، ط١، الأردن، دار الفكر، ٢٠٠٩م.

❖ **ديوان جرير**، تحقيق: محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، مطبعة الصاوي، ١٣٥٣ه.

❖ **الذخيرة**، القرافي، أحمد بن إدريس، تحقيق: محمد صبحي، ط١، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٤.

❖ **رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز**، الحنبلي، عبد الرزاق، ط١، مكة، مكتبة الأسدي، ٢٠٠٨م.

❖ **روح المعاني**، الألوسي، محمد، ط١، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٩٩٤م.

❖ **زاد المسير في علم التفسير**، ابن الجوزي، عبد الرحمن، د.ط، المكتبة الإسلامية، د. ت

❖ **زيادة الحروف بين التأييد والمنع وأسرارها البلاغية في القرآن**، فدا، د.

هيفاء، ط ١، دار القاهرة، ٢٠٠٠م.

❖ **الزيادة والإحسان في علوم القرآن**، المكي، ابن عقيلة، ط ١، الشارقة، مركز البحوث والدراسات، ٢٠٠٦م.

❖ **شرح الرضي على الكافية**، تعليق: يوسف عمر، ط ١، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس، ١٩٩٦.

❖ **شرح المفصل**، ابن يعيش، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م.

❖ **صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم**، الدوسري، عبد الرحمن، ط ١، الرياض، دار المغني، ٢٠٠٤م.

❖ **على طريق التفسير البياني**، السامرائي، فاضل، د.ط، الشارقة، جامعة الشارقة، النشر العلمي، ٢٠٠٢.

❖ **غرائب التفسير وعجائب التأويل**، الكرماني، محمود، د.ط، جدة، دار القبلة، جدة، د. ت

❖ **الفتاوى الكبرى**، ابن تيمية، أحمد، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م.

❖ **فتح القدير للشوكاني**، الشوكاني، محمد بن علي، د.ط، دار الوفاء، د. ت

❖ **فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب**، الطيبي، صالح الفايز، رسالة دكتوراه، المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية، ١٤١٣.

❖ **الفروق اللغوية**، العسكري، أبو هلال، د.ط، دار العلم والثقافة، د. ت

❖ **الفروق في اللغة**، العسكري، أبو هلال، ط٧، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٩١م.

❖ **الكافية في علم النحو**، ابن الحاجب، تحقيق: د. صالح الشاعر، د.ط، القاهرة، مكتبة الآداب، د. ت

❖ **الكشاف عن الحقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، الزمخشري، محمود، ط ١، مكتبة العبيكان، ١٩٩٨م.

❖ **الكشف عن وجوه القرآن السبع وعللها وحججها**، القيسي، مكي بن أبي طالب، دمشق، منشورات مجمع اللغة العربية، ١٩٧٤م.

❖ **الكشف والبيان المعروف تفسير الثعلبي**، الثعلبي، أحمد، ط ١، لبنان، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٢م.

❖ **اللباب في علوم الكتاب**، بن عادل، عمر بن علي، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م.

❖ **مجاز القرآن**، المثنى، أبو عبيدة معمر، تحقيق: فؤاد سزكين، د.ط، القاهرة، مكتبة الخانجي، القاهرة، د. ت

❖ **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، بن عطية، عبد الحق، ط ١، لبنان، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م.

❖ **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، النسفي، عبد الله، ط ١، بيروت، دار الكلم الطيب،١٩٩٨م.

❖ **مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد**، الجاوي، محمد، ط ١، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.

❖ **معاني القرآن وإعراب**، الزجاج، أبو إسحاق، ط ١، عالم الكتب، ١٩٨٨م.

❖ **معاني القرآن**، النحاس، أبو جعفر، تحقيق: الصابوني، ط ١، جامعة أم القرى،

معهد البحوث العلمية، ١٩٨٨م.

❖ **معاني القرآن**، الفرّاء، ط٣، بيروت، عالم الكتب، ١٩٨٣م.

❖ **معاني النحو**، السامرائي، فاضل، بغداد، منشورات جامعة بغداد، ١٩٩١م.

❖ **معاني النحو**، السامرائي، فاضل صالح، د.ط، القاهرة، شركة العاتك، د. ت

❖ **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، السيوطي، تحقيق: أحمد شمس الدين، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.

❖ **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، ابن هشام، د.ط، السلسلة التراثية، د. ت

❖ **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، ابن هشام، تحقيق: عبد اللطيف الخطيب، ط ١، الكويت، ٢٠٠٠م.

❖ **مغني اللبيب**، ابن هشام، تحقيق: مازن المبارك، ط٦، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥م.

❖ **مفاتيح الغيب**، الرازي، محمد، ط ١، دار الفكر، ١٩٨١م.

❖ **المقتصد في شرح الإيضاح**، الجرجاني، عبد القاهر، تحقيق: كاظم المرجان، الجمهورية العراقية، وزارة الإعلام، ١٩٨٢م.

❖ **المقتطف من عيون التفاسير**، المنصوري، مصطفى، ط٢، دار القلم، ١٩٩٦م.

❖ **من أسرار التعبير في القرآن الكريم**، لاشين، عبد الفتاح، ط ١، القاهرة، دار الفكر العربي، ٢٠١٤م.

❖ **من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم**، الخضري، د. محمد الأمين، ط ١،

مكتبة وهبة، ١٩٨٩م.

❖ **نظرية الحروف العاملة ومبناها وطبيعة استعمالها**، الهلالي، د. هادي، ط ١، عالم الكتب، ١٩٨٦م.

❖ **نظم الدرر، في تناسب الآيات والسور**، البقاعي، إبراهيم بن عمر، د.ط، القاهرة، دار الكتب الإسلامي، د. ت

❖ **نواهد الأبكار وشوارد الأفكار**، السيوطي، جلال الدين، أحمد الدروبي، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، ١٤٢٥ه.

❖ **همع الهوامع في شرح الجوامع**، السيوطي، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، د.ط، القاهرة، عالم الكتب.

❖ **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، النيسابوري، علي، ط ١، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٩٩٤م.